نكبة مخيم اليرموك: لا فرق بين سلطة احتلال ونظام ممانعة

الكاتب : محمود سرحان

التاريخ : 3 يناير 2014 م

المشاهدات : 6043

تحمل ذاكرة الفلسطينيين في مخيم اليرموك ـ جنوب دمشق، ذكرى قاسية لنكبتين، كانت الأولى هجرتهم من أراضيهم عام 1948، بينما الثانية كانت يوم الأحد 16/12/2012، وهو تاريخ دخول قوات المعارضة المسلحة و«ضربة الميغ»

الغارة الجوية التي نفذها طيران النظام السوري على مدرسة «الفالوجة» وجامع عبدالقادر الحسيني وسط المخيم، وكلاهما كانا مراكز إيواء للنازحين من المناطق الأخرى، راح ضحيتها حوالي (170) شهيداً وعشرات الجرحى.

تبع تلك الغارة الجوية آنذاك؛ انتشار إشاعات تتحدث عن إعطاء مهلة للمخيم مدتها 24 ساعة قبل اقتحامه على يد قوات النظام، قام في أثرها الآلاف من الأهالي المرعوبين من هول المجزرة، بحمل بعض أمتعتهم ومغادرة المخيم في مشهد حي للتغريبة الفلسطينية الجديدة، والتي وُصفت أنها أكثر بشاعة من الأولى.

ويعتبر الكثير من الناشطين في المخيم أن ضربة الميغ 17/12/2012 هي التاريخ الفعلي لنكبة المخيم، ووفق محمد المقدسي – الناطق الإعلامي باسم اتحاد شبكات أخبار المخيمات الفلسطينية: بعد «ضربة الميغ» نشرت صفحات «فايسبوك» الخاصة بجماعة جبريل إشاعة بأن الجيش السوري يطلب من الأهالي إخلاء المخيم، وهو ما قاموا به فعلاً خوفاً من مجزرة أخرى بحقهم مثل مجزرة الجامع والمدرسة.

في تلك الفترة كان مخيم اليرموك يأوي آلاف العائلات السورية التي نزحت إليه من المناطق المجاورة وحتى من مدينتي حلب وحمص، وازدحمت المدارس والجوامع والمنازل بالنازحين السوريين، وشكل بذلك بيئة آمنة من جحيم الصراع المستعر في البلاد، ولكن هذا لم يرق للنظام السوري، الذي اتبع منذ بداية مواجهته للثورة، سياسة العقاب الجماعي بحق المدنيين وتشريدهم بعد قصف منازلهم وتهجيرهم من مناطقهم هرباً من حمم الموت التي يصبها جيشه عليهم ما إن تظهر مجموعات «الجيش الحر» فيها.

وقد نجح «اليرموك» على مدى تسعة أشهر متواصلة من عمر الصراع بالوقوف على الحياد رغم المحاولات العديدة التي جرت لتوريطه، من خلال استهدافه بقذائف الهاون مرات عديدة واتهام المعارضة بها، وقد أسفرت إحداها عن حدوث

مجزرة «الجاعونة» بتاريخ 2/8/2012 راح ضحيتها أكثر من 20 شهيداً وعشرات الجرحى.

ولكن كانت الخطوة الرئيسية في "توريطه" هي خروج «جماعة جبريل» الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة، عن إجماع فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وتشكيلها لجاناً شعبية مسلحة بدعم من النظام، وقد قام العديد من مجموعاتها بتجاوز مهماتهم في حماية المخيم، وقيامهم الاشتباك مع مجموعات الجيش الحر في منطقة الحجر الأسود والتضامن، حتى إن بعض هذه المجموعات تجاوزت أيضاً سلطة «جبريل» وأصبحت تتبع مباشرة للحرس الجمهوري، وهي التي ساهمت في النهاية في إنجاح خطة النظام في القضاء على «المنطقة الخضراء» والحاضنة الشعبية التي يمثلها المخيم.

وأوجدت دافعاً لدى المعارضة المسلحة لدخوله بهدف التخلص منهم، حيث يقول المقدسي: كان «الحر» ينوي تحرير منطقة الحجر الأسود والأحياء المتداخلة بين مخيم اليرموك ومنطقة يلدا فقط، ولكن «بيان مزعل» قام بالدخول مع قواته إلى كامل المخيم متجاوزاً الالتزام بهذه الخطة.

وهنا من جديد يبرز اسم «بيان مزعل» أحد قادة المعارضة المسلحة في المنطقة الجنوبية، والذي تبين حالياً أنه عميل للنظام السوري وكان سبباً في استعادة النظام السيطرة على أحياء في تلك المنطقة.

بالتالي، كان النظام وراء توريط المخيم وإدخاله دائرة الصراع الدموي محققاً عدة مكاسب، فهو من الناحية العسكرية أحكم قبضته في شكل تام على كامل الأحياء في المنطقة الجنوبية، مستعيناً بحاجز واحد مكون من بضع مئات من الجنود والميليشيا التابعة له، وهو ما يخفف أعباء الانتشار حول المخيم، وما يتطلبه ذلك من أعداد أكبر من الجنود والعتاد ونقلها للعمل في مناطق أخرى أكثر حساسية بالنسبة إليه.

كما إنه قطع كل طرق الإمداد التي يشتبه بوجودها، إضافة إلى قضائه على الأمان الذي كانت تحياه الحاضنة الشعبية للثورة، والتي يمثلها آلاف النازحين السوريين في المخيم، وذلك ضمن السياسة التي ينتهجها النظام في معاقبة المناطق الثائرة وسكانها أينما كانوا.

ومن الناحية السياسية استطاع النظام استثمار قضية تهجير الفلسطينيين من المخيم لكي يعرضها كجزء من أنشطته الدعائية حول «المؤامرة الكونية» عليه، وورقة يبتز من خلالها جميع الأطراف الفلسطينية والعربية والدولية على حد سواء.

لقد نجح النظام في توريط مخيم اليرموك عبر «جماعة جبريل» وأحد عملائه، وبذلك استطاع ميدانياً ببضعة جنود فقط، فرض حصار صارم على كامل الأحياء الخارجة عن سيطرته في المنطقة الجنوبية من دمشق، ولمدة تجاوزت العام، وهو ما يدفعه للمماطلة في تنفيذ أي مبادرة تقدمها منظمة التحرير الفلسطينية أو سواها، ووفق ممدوح – ناشط سياسي: «ليس له مصلحة فيها حالياً»، وأن المبادرة أو التهدئة ليست سوى لعبة يلعبها في الحرب النفسية التي يفرضها على المحاصرين لقتل روحهم المعنوية بانتظار تغير الموازين الميدانية لمصلحته.

وحتى الآن فشلت المبادرات التي قدمتها منظمة التحرير، أما تلك؛ التي قدمتها المؤسسات الأهلية في اليرموك فبقيت معلقة بين تصريحات المسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية عن استمرارها وتصريحات «جماعة جبريل» عن فشلها.

ولم تثمر كل النداءات الإنسانية التي وجهها العاملون في المجال الاغاثي، لإنقاذ المحاصرين من كارثة إنسانية متفاقمة، نتيجة بقائهم من دون غذاء أو دواء لمدة تجاوزت الستة أشهر، كما لم تثمر التحركات الشعبية التي قام بها الأهالي من أجل تحييد المخيم والضغط على «جبريل» والنظام لكي تنفذ المبادرة الأخيرة، والذين قدموا في سبيل ذلك أربعة شهداء في تظاهرة «الأكفان»، عند توجهها إلى حاجز قوات النظام في أول المخيم وعادت بعدها لتواجه «استغلال التجار» داخله، حتى الأطفال خرجوا في تظاهرات «الأواني الفارغة» مطالبين بفك الحصار.

وفي الذكرى السنوية الأولى لنكبة المخيم، قام الأهالي المحاصرون بإحيائها مطالبين بفك الحصار وتحييده عن الصراع، والكف عن قتلهم بمختلف أشكال الموت جوعاً وقصفاً، ولكن حتى الآن كل هذه التحركات والنداءات لم تجد لها صدىً عند

من يحاصرهم.

وبعد عام كامل فشلت جميع التحركات الشعبية والرسمية ممثلة «بالمنظمة» من تحقيق أي انفراج في ما يتعلق بفك الحصار عن مخيم اليرموك، فقد نجح النظام في القضاء على المنطقة الخضراء للنازحين السوريين وقطع طرق الإمداد واستخدام ورقة المخيم للتفاوض عليها.

وهذا الوضع المريح يمّكن النظام من مساومة الجميع باعتبار أن خيوط اللعبة في يديه وحده، ويجعله الرابح الوحيد من نكبة اليرموك.

ووفق ما يقوله «ممدوح»: يبدو أن الفارق الوحيد بين من يحاصر الفلسطينيين في غزة ومن يحاصرهم في اليرموك هو الاسم فقط: نظام «احتلال» ونظام «ممانعة».

العصر

المصادر: